شبام كوكبان مدينة عربية إسلامية

د.أبو الحمد محمود محمد فرغلى*

تبوأت مدينة شبام كوكبان[١] مكانة تاريخية وحضارية هامة عبر العصور القديمة والإسلامية التى مرت بها اليمن، وأخذت هذه المكانة تتنامى حتى أصبحت شبام كوكبان واحدة من مدن القيعان اليمنية القديمة فى حوالى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد[٢] ثم بلغت أوج ازدهارها فى بداية القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) عندما اتخذها اليعفريون عاصمة للدولة اليعفرية التى استمرت تحكم اليمن فترة طويلة وصلت ما يقرب من قرنين (٢١٤ـ٣٩٣هـ./ ٨٢٩ـ١٠٠٢م.)[٣]. وتوالت على هذه المدينة العديد من الدول والأسرات الحاكمة خلال العصر الإسلامى فى اليمن نالت فى بعضها قسطاً وافراً من الازدهار العمرانى وأصابها فى البعض الآخر الكثير من الدمار والتخريب. وعلى الرغم من ذلك احتفظت ببعض الآثار المتنوعة الوظائف والخدمات تحمل نماذج معمارية وفنية ذات أهمية خاصة فى مجال الآثار الإسلامية نذكر منها: الجامع الكبير أو جامع شبام القديم والسوق القديم.

والحمام القديم والسمسرة (دار الجمرك) وسور المدينة وبواباتها. وتجدر الإشارة إلى استمرار استخدام بعض الأساليب المعمارية والعناصر الفنية الزخرفية اليمنية القديمة فى هذه العمائر الإسلامية الباقية بمدينة شبام كوكبان. وإن كانت هذه الآثار الإسلامية تفتقر إلى الدراسات الأثارية المتخصصة[٤]. إلا أن مجموعة من الدراسات الأجنبية والعربية قد تناولت بالوصف والتحليل لأثر معمارى هام منها هو جامع شبام القديم[٥]. من هنا كانت أهمية هذه الدراسة المتواضعة بعنوان "شبام كوكبان مدينة عربية إسلامية".

---

* أستاذ مساعد ـ كلية الآثار ـ جامعة القاهرة

(١)شبام اسم مكان تشترك فيه عدة مواضع يمنية هى: شبام حراز وشبام سخيم (الغراس) وشبام حضرموت وشبام كوكبان (موضوع هذه الدراسة) اليمانى (تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد): تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن فى تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازى. الطبعة الثانية. صنعاء، ١٩٨٥م. ص٤١.

وعن لفظة "شبام وشبم" انظر: ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على بن أحمد بن أبى القاسم بن حقبة): لسان العرب تحقيق نخبة من الأساتذة. مجلد٤. دار المعارف بمصر، ١٩٨١. ص١٨٩.

(٢)عبد الله (د. يوسف محمد): الموسوعة اليمنية. المجلد١. تاريخ اليمن القديم. مؤسسة العفيف الثقافية. صنعاء، ١٤١٢هـ./ ١٩٩٢م. ص ٢١٥.

(٣)الشجاع (د. عبد الرحمن عبد الواحد): مصادر الدولة اليعفرية. صنعاء، مجلة التاريخ والآثار العددان. الثانى والثالث (أكتوبر ١٩٩٣م ـ مارس ١٩٩٤م) صنعاء. ص ٢٦.

(٤) ياسين (د. غسان طه) وفرغلى (د. أبو الحمد محمود): تقرير المسح الأولى للآثار الباقية فى مدينة شبام كوكبان وضواحيها. مجلة التاريخ والآثار. العددان الثانى والثالث (أكتوبر ١٩٩٣م ـ مارس ١٩٩٤م) صنعاء. ص ٤٩ـ ٥٧.

(٥) نذكر منها على سبيل المثال:

Finister, B.: Die Freitags Moschee Vom Sibam-Kaukaban Baghdader Mitteilungen. Band 10. 1979;

الموقـــع:

تقع مدينة شبام كوكبان بين خطى عرض ١٥ درجة جنوباً و ١٦ درجة شمالاً وبين خطى طول ٤٣ درجة غرباً و ٤٤ درجة شرقاً على ارتفاع حوالى ١٥٠٠ متراً إلـــى ٢٠٠٠ متراً فوق مستوى سطح البحر[٦]. ويعرف هذا المرتفع باسم جبل شبام الذى يبعد عن مدينـــة صنعاء عاصمة الجمهورية اليمنية بحوالى أربعين كيلو متراً (شكل رقم١). وتشغل مدينة شبام الجانب الشرقى لجبل كوكبان الشاهق الارتفاع والمنحدر تجاه الشرق لذا يعتبر جبل كوكبـــان حماية طبيعية للمدينة كما أن مدينة شبام تعتبر خط الدفاع الأول لمدينة كوكبان[٧] التـــى تقـــع بأعلى جبل كوكبان فمن يستولى على شبام يسهل عليه الاستيلاء على كوكبان.

ولقد وفر هذا الموقع المتميز لمدينة شبام كوكبان سهولة الاتصال التجـــارى بينـــها وبين المدن المجاورة لها مما ترتب عليه انتعاش أسواقها وازدهار اقتصادها وساعد على ذلـك اتصالها بطريق ممهد من مدينة صنعاء إلى مدينة ثـــلا[٨] ومدينـــة كوكبـــان وإلـــى مدينـــة المحويت[٩]. يضاف إلى ذلك أنها تمتاز بحقولها الفسيحة واسعة الاتساع صالحة للزراعة فيـــها ضياع كبيرة وكروم. وتمتاز أيضًا بمواردها الطبيعية من المعادن مثل معدن الفضة فى جبـــل شبام وجبل كوكبان ومعدن النحاس فى شبام[١٠].

شبام كوكبان مدينة عربية:

فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد اعتمد أهل اليمن كثيرًا على الرخاء الذى تـــدره عليهم القوافل التجارية ومن ثم قللوا من اهتمامهم بالزراعة مما ترتب عليه أن ظهرت عـــدة دول تحكم اليمن فى آن واحد بلغ عددها حوالى خمس دول هى: دولة سبأ ودولة قتبان ودولـــة معين ودولة حضرموت ودولة حمير[١١]. وكان من نتيجة هذا الازدهار والرخاء الاقتصـــادى أن انتشرت هجمات القبائل البدوية المتنقلة فى الصحـــراء علـــى حواضـــر الـــدول اليمنيـــة

رجب (د. غازى محمد): الجامع الكبير فى شبام كوكبان. روائع الفن المعمارى العربى الإسلامى فى اليمن. مجلة كلية الآداب. جامعة بغداد، ١٩٨٠م؛ وشيحة (د. مصطفى عبد الله): مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى الجمهورية اليمنية. الطبعة الأولى. القاهرة، ١٩٨٧م. ص٤١ــ٤٥.

(٦) الثور (عبد الله أحمد محمد): هذه هى اليمن الأرض والإنسان والتاريخ. الطبعة الثالثة. بيروت، ١٩٨٥م. ص ١٠.

(٧) كوكبان تثنية كوكب وهو من أشهر معاقل اليمن وأبعدها صيتاً وأعظمها ذكراً وأمنعها مناعـــة ولازال آهلاً بالسكان وله فى التاريخ صدى طويل. الهمدانى (لسان اليمن الحسن بـــن أحمـــد بـــن يعقوب): صفة جزيرة العرب. تحقيق القاضى محمد بن على الأكوع الحوالى. صنعاء ١٤١٠هـــ./ ١٩٩٠م. ص٢١٢.

(٨) ثلا قرية كبيرة مسورة على ربوة مرتفعة الشكل وبها مساجد عامرة وفيها حمام وتنساب إليها ينابيع المياه العذبة تتخلل أزقتها ومساجدها وحولها أشجار الفواكه. وحصنها المطل عليه من الغرب يحتفظ بمنعته وشممه وفيه آثار حميرية. الهمدانى: المصدر السابق. ص٢١٢.

(٩) مشتت (د. صباح عبد اللطيف) وآخرون: شبام كوكبان الصورة العمرانية للمدينة اليمنية دراسة تحليلية توثيقية. صنعاء، ١٩٩٥م. ص٦.

(١٠) الثور: المرجع السابق. ص ٥٧.

(١١) عبد الله: المرجع السابق. ص٢١٥.

ومحطاتها التجارية مما اضطر الكثير من سكان الوديان على أطراف الصحراء إلى هجر ديارهم والاحتماء بالمرتفعات فى الداخل. وأدى ذلك إلى ظهور مجموعة من المدن وازدهارها أطلق عليها اسم "مدن القيعان" فى الهضاب والمرتفعات اليمنية البعيدة عن هجمات العدو[١٢].

وتعد مدينة شبام كوكبان واحدة من مدن القيعان اليمنية القديمة فهى تقع على جبل شبام ويحميها جبل كوكبان المرتفع (شكل رقم ٢) وشيد اليمنيون القدماء مساكنهم وعمائرهم المتعددة الأغراض فى هذه المدينة وينسب إلى دولة سبأ ودولة حمير ازدهار شبام وكانت تدعى شبام أقيان وشبام حمير ويقال لها شبام يحبس وشبام يعفر[١٣]. ولكن غلب عليها اليوم اسم "شبام كوكبان"[١٤] ويذكر المؤرخ اليمنى الكبير "الهمدانى" أنها عرفت باسم "شبام أقيان نسبة إلى أقيان بن زرعة بن سبأ الأصغر أحد ملوك حمير[١٥]. ويؤكد ذلك القاضى "إسماعيل الأكوع" فى عبارة موجزة نصها "كان لشبام كوكبان ذكر قبل الإسلام "[١٦] فيما يبرهن على ذلك بأدلة مادية "الهمدانى" بقوله: "وكان فيه ــ فى مدينة شبام كوكبان ــ أعماد حجارة جاهلية تسمى أعماد سال عليها عرش وليست أعماداً مثل مأرب فى العتق والنفاسة"[١٧].

ومما لا شك فيه أن الكثير من العمائر الدينية والمدنية والحربية شيدت فى شبام كوكبان عبر تاريخها القديم قبل دخول الإسلام إلى اليمن يؤيد ذلك تلك البقايا الأثرية التى ما تزال باقية حتى الآن عبارة عن مجموعة من الأحجار والأعمدة القديمة وجدت متفرقة فى عمائر مختلفة حيث أخذت من مبان أثرية قديمة دارسة وأعيد استخدامها مرة أخرى فى هذه العمائر الحديثة دون دراية بأهميتها من أهالى المدينة الذين أعادوا استخدامها عن طريق تثبيتها فى عمائرهم. ومن أمثلة هذه الأحجار القديمة مجموعة تحتوى على نصوص نقشت بالخط اليمنى القديم[١٨] (شكل رقم ٣) الذى يعرف باسم الخط المسند[١٩] يأتى فى مقدمتها كتلة حجرية ضخمة تقع على يسار الداخل من البوابة الرئيسية للمدينة تشتمل على نص كتابى هام بالخط المسند (شكل رقم ٤)[٢٠] كما توجد مجموعة من الأحجار القديمة ذات الزخارف المتنوعة (شكل رقم ٥) ومثال ذلك قطعة من الحجر مقاساتها (٣٢×٣٤سم) تحتوى على زخرفة بسيطة من خطوط غير مستقيمة (شكل رقم ٥ ــ أ) وقطعة حجرية ثانية مقاساتها حوالى (٦٤×٢٠سم) تزينها أربع دوائر متماسة (شكل رقم ٥ ــ ب) وقطعة ثالثة مستطيلة

---

(١٢) المرجع نفسه ص٢١٦.
(١٣) الهمدانى: المصدر السابق. ص١٠٦ وهامش (٤).
(١٤) المصدر نفسه ص ١٠٦.
(١٥) الهمدانى: الإكليل. الجزء الثامن. حرره وعلق على حواشيه أمين فارس. صنعاء (د.ت.). ص٤٨.
(١٦) الأكوع (القاضى إسماعيل بن على): هجر العلم ومعاقله فى اليمن. الجزء الثانى. بيروت ــ دمشق، ١٤١٦هـ./ ١٩٩٥م. ص١٩٠٠٥.
(١٧) الهمدانى: المصدر السابق. ص٨٥.
(١٨) ياسين وفرغلى: المرجع السابق. ص٥ (شكل رقم٣).
(١٩) كتب بالخط المسند على الحجارة القائمة فى جدران المبانى وعلى لوحات من رخام أو حجر كلسى كانت تقام أو تسند فى المعابد والمبانى ومن هنا جاءت التسمية بالمسند كما هو شائع لدى الدارسين. انظر؛ بافقيه (د. محمد عبد القادر): تاريخ اليمن القديم. بيروت، ١٩٨٥م. ص١٩١؛ والغول (محمود): النقوش اليمنية. مجلة التاريخ والآثار. العددان الثانى والثالث. ص٢٦.
(٢٠) ياسين وفرغلى: المرجع السابق. (شكل رقم ٣).

الشكل توجد فى أحد المنازل تزينها زهرة رباعية البتلات تمتاز بدقة خطوطها (شكل رقم٥ــ جـ) وأما القطعة الرابعة تعتبر من الأمثلة الفنية الهامة فى النحت اليمنى القديم قوامها ميزاب للماء من حجر البازلت الأسود تم تشكيله بدقة وإتقان على هيئة رأس الثور (شكل رقم ٥ ــ د) والقطعة الخامسة عبارة عن الجزء السفلى من بدن عمود حجرى تزينه خطوط طولية مستقيمة على هيئة هندسية بديعة ويتصل بقاعدة حجرية تحمل بقايا نقوش بالخط المسند تعرضت للتلف (شكل رقم ٥ ــ هـ) وهذا الجزء من العمود الحجرى القديم قائم إلى يمين أحد الحوانيت (الدكاكين) فى سوق الملح بالسوق المركزى القديم[٢١].

شبام كوكبان مدينة إسلامية:

يرتبط اسم شبام كوكبان بآل يعفر الحواليين فلقد ذكر الهمدانى بأن "شبام أقيان قرية بها مملكة بنى حوال وحارب يعفر بن عبد الرحمن الحوالى بها بعض القواد لأكثر من خليفة عباسى فى عهد كل من: المعتصم والواثق والمتوكل فردهم وفلهم[٢٢]. ويذكر القاضى الأكوع بأن مؤسس الدولة اليعفرية هو "يعفر بن عبد الرحمن بن كريب الحوالى"[٢٣] وبدأت هذه المدينة تحتل مكانة هامة فى تاريخ اليمن الإسلامى حينما اتخذها اليعفريون قاعدة لهم ولجنودهم فى حروبهم مع ولاة الخلافة العباسية بهدف الاستقلال عن الخلافة العباسية[٢٤] ثم اتخذ اليعفريون مدينة شبام كوكبان عاصمة لملكهم بدلاً من مدينة صنعاء ويقف وراء ذلك جملة من الأسباب لعل من أهمها: أن مدينة شبام كوكبان من المدن المرتفعة فهى تقع على جبل شبام ويحميها جبل كوكبان الشاهق الارتفاع وكانت من مدن القيعان اليمنية القديمة. يضاف إلى ذلك أن شبام كوكبان موطن اليعفريين الحواليين ومسقط رأسهم ففيها الأهل والعشيرة الذين يقفون إلى جوارهم لصد أى اعتداء عليهم. وعلاوة على ذلك انتشر المذهب الزيدى فى اليمن وامتد نفوذ الأئمة الزيدية حتى دخلوا مدينة صنعاء فى سنة (٢٨٨هـ./ ٢٩٨م) مما اضطر اليعفريون إلى العودة إلى مدينة شبام كوكبان وظل الحال سجالا بينهم حتى نهاية الدولة اليعفرية[٢٥].

ويقال إن هذه المدينة سميت شبام باسم شبام بن عبد الله رجل من همدان توطنها واسمها القديم "يحبس" ويسكنها مع الحواليين آل ذى جدن ومن بقايا الأقبانيين[٢٦]. ومن هنا أطلق على مدينة شبام كوكبان مملكة آل يعفر الحواليين وهى إحدى جنان اليمن يمر بها نهران ولهم فيها حصون هائلة وذروتها واسعة فيها ضياع كبيرة وكروم[٢٧]. والطريق إلى تلك الضياع يمر إلى دار الملك وللجبل باب واحد مفتاحه عند الملك فمن أراد النزول إلى

---

(٢١) المرجع نفسه. ص٥٠.
(٢٢) الهمدانى: صفة جزيرة العرب. ص٢١١، ٢١٢.
(٢٣) الأكوع: المرجع السابق. ص١٠٠٧.
(٢٤) اليمانى: المرجع السابق. ص٣٨، ٣٩؛ الأكوع: المرجع السابق. ص١٠٠٨.
(25) Bosworth, C.E.; The Islamic Dynasties, Edinburgh, 1980. P. 72;
وسليمان (د. أحمد السعيد): تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة. الجزء الأول. دار المعارف بمصر، ١٩٧١م. ص٢١١.
(٢٦) الأكوع: المرجع السابق. ص ١٠٠٦.
(٢٧) الحميرى (محمد بن عبد المنعم): كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار. معجم جغرافى تحقيق الدكتور إحسان عباس. الطبعة الثانية. بيروت، ١٩٨٠م. ص٣٣٨.

السهل فى حاجة دخل على الملك فأعلمه ذلك فيأمر بفتح الباب وحول الضياع والكروم جبال شاهقة لا مسلك فيها[٢٨].

وتجدر الإشارة إلى أن الأحداث السياسية والتاريخية لليمن عموماً وشبام كوكبان خصوصاً قد انعكست بالإيجاب والسلب على المدينة ومنشآتها المعمارية المختلفة سواء قبل عصر الدولة اليعفرية أو بعد سقوطها، كما أن الأحداث الطبيعية قد أثرت أيضاً على مدينة شبام كوكبان. ومثال ذلك تعرضت هذه المدينة لزلزال عظيم وقع فى اليمن قبل قيام الدولة اليعفرية أدى إلى أن انهدمت شبام كوكبان جميعاً إلا دار إبراهيم بن الصباح وكان كثير الصدقة قيل إنه سلم من البلاء لكثرة صدقته[٢٩]. مما يفسر ندرة ما تبقى من الآثار المعمارية القديمة قبل الإسلام فى هذه المدينة ويبرهن فى الوقت نفسه على اهتمام حكام الدولة اليعفرية بمدينة شبام كوكبان فأقاموا فيها القصور والمنازل والمساجد والحمامات والأسواق والتحصينات التى ما تزال بقاياها شاخصة للعيان ويأتى فى مقدمتها جامع شبام القديم. كما ذكر الهمدانى بأن الأمير يعفر بن عبد الرحمن الحوالى مؤسس الدولة اليعفرية ضرب ــ أى بنى وشيد ــ عليها سوراً لما حاربه أحد قواد الخليفة العباسى الواثق وهو منصور بن عبد الرحمن التنوخى[٣٠].

ويعود إلى عهد الملك العزيز طغتكين الأيوبى (٥٧٧ــ٥٩٣هـ/ ١١٨١ــ١١٩٧م.)[٣١] إصلاح بعض العمائر فى مدينة شبام كوكبان خصوصاً سور المدينة وبواباتها وذلك بعد سنة (٥٨٥هـ/ ١١٨٩م.)[٣٢] عندما استولى على حصن كوكبان وكان من عادته أن يصلح ويعمر المدن التى أصابها الدمار بعد دخولها بجيوشه وضمها إلى ملكه مثلما فعل الأمر نفسه بعد دخوله مدينتى صنعاء وزبيد[٣٣].

ولكن الملك المعز إسماعيل بن طغتكين دخل شبام كوكبان فى سنة (٥٩٦هـ/١١٩٩م.) وحول مسجدها الجامع إلى إسطبل للحيوانات وذلك أثناء محاصرته لمدينة كوكبان كما اتخذ من أخشابها ومن أبواب مساجدها زحافة لجيشه[٣٤]. ولقد حدث الأمر نفسه خلال القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) حينما استولى الملك المظفر شمس

---

(٢٨) القزوينى (زكريا محمد بن محمود): آثار البلاد وأخبار العباد. دار صادر بيروت. (د.ت.) ص٤٦٨؛ وشامى (د. يحيى): موسوعة المدن العربية والإسلامية. بيروت، ١٩٩٣م. ص١٣٦.

(٢٩) الحميرى: المصدر السابق. ص٣٣٨.

(٣٠) الهمدانى: المصدر السابق. ص٢١١.

(٣١) القاسم بن محمد (يحيى بن الحسين): غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى. تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور. القاهرة، ١٩٦٥م. ص٣٦.

(٣٢) اليمانى: المصدر السابق. ص٧٩.

(٣٣) المصدر نفسه. ص٧٩.

(٣٤) القاسم بن محمد: المصدر السابق. ص٣١٩؛

Lewcock, R. & Smith, G.R.: Two Early Mosques in Yemen. Art and Archaeology Research Papers. Dec. 1973. P. 117.

الدين يوسف الرسولى[٣٥] على حصن كوكبان المنيع من الحوثيين وذلك فى سنة (٦٩٦هـ./١٢٧٠م.)[٣٦].

وفى نهاية القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) وأثناء الفتح العثمانى لليمن جاء ذكر مدينة شبام كوكبان فى كتاب "البرق اليمانى فى الفتح العثمانى" عند سرد الأحداث التاريخية التى حدثت فى سنة (٩٧٧هـ./١٥٧٠م.)[٣٧] "فى التاسع من ربيع الأول انتقل بعساكره ــ يقصد به الوزير سنان باشا[٣٨] ــ وخيم فى فناء مدينة شبام وضرب حوله الوطاق[٣٩] والخيام. وهى مدينة واسعة ذات أندية شاسعة يحيط بها من الجوانب الثلاث جبال شامخة فى الهواء راسخة فى حضيض الماء لا يمكن الوصول إليها من تلك الجوانب ولا يرقاها غير الثعالب والأرانب. والجانب الرابع المستقبل للفضاء محصن بجدر شاهق البناء مبنى باللبن الشديد المنسبك كالحديد طوله خمسة آلاف ذراع وعرضه خمسة عشر شبراً. وفى جانبيه قلعتان يحفظانها من طوارق العدوان فيهما مدافع ورماة لا يقربون إلى ذلك الحصن من أراده ورماه. إحدى القلعتين اسمها قصر (العرض) والثانية تسمى (اللباخة)[٤٠]. مشحونتان بآلات السلاح من المدافع وغيرها[٤١].

ومازلنا مع المؤرخ قطب الدين النهروالى حيث يسرد كيفية دخول الوزير سنان باشا مدينة شبام كوكبان بعد تصميمه على أخذها بالقوة وتم له ما أراد "وغنمت العساكر السلطانية شيئاً كثيراً مما وجدوه مخزوناً فى شبام"[٤٢]. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل يصف لنا مدى الدمار والتخريب لهذه المدينة" واستشار الأمراء فى أمر شبام فأجمع رأيهم على أن تخريبه أولى من بقائه لأنه لا يمكن تملكه إلا بعد أخذ قلعة كوكبان لأنها حوالة عليه فأمرهم بهدم شبام إذا أصبح الصباح فلما أشرقت الشمس توجه العسكر إلى شبام وأحرقوا ما يمكن إحراقه وهدموا ما يمكن هدمه وقلعوا أبواب بيوته وأخشاب سقوفه وجعلوه حطباً لقلة الحطب فى ذلك المكان وأخربوه قدر الاستطاعة والإمكان. وكان ذلك فى الحادى عشر من ربيع الأول سنة سبع وسبعين وتسعمائة"[٤٣]. وعلى الرغم من ذلك فإنه ينسب إلى العصر العثمانى فى اليمن بعض أعمال البناء والإصلاح والتجديد التى قام بها بعض ولاتهم منها إصلاح

---

(٣٥) حكمت دولة بنى رسول فى اليمن من سنة (٦٢٦هـ./١٢٢٩م.) حتى سنة (٨٥٨هـ./١٤٥٤م.) انظر:
Basuorth, C.E.: Op. Cit., P. 76.

(٣٦) اليمانى: المصدر السابق. ص٩٦.

(٣٧) النهروالى (قطب الدين محمد بن أحمد): البرق اليمانى فى الفتح العثمانى. الطبعة الثانية. بيروت، ١٩٨٦م. ص٢٩٢.

(٣٨) يقصد به الوزير سنان باشا فى عهد السلطان العثمانى سليم الثانى (٩٧٤ــ٩٨٢هـ./ ١٥٦٦ــ١٥٧٤م.) Bosworth, C.E.: Op. Cit. P. 136.

(٣٩) الوطاق كلمة تركية تعنى المخيم والأثاث والمحطة.
النهروالى: المصدر السابق. ص٨٠.

(٤٠) اللباخة بلدة خربة فى ظاهر شبام. انظر: الهمدانى: المصدر السابق. ص٢١٣؛ هامش ٢.

(٤١) النهروالى: المصدر السابق. ص ٢٩٢.

(٤٢) المصدر نفسه. ص٢٩٣.

(٤٣) المصدر نفسه. ص٢٩٣.

وتجديد الجامع الكبير بشبام كوكبان[٤٤] وكذلك أعمال الإصلاح والتجديد فى السوق المركزى والحمام القديم وسور المدينة وبواباتها بشبام كوكبان وغيرها من العمائر المتنوعة الوظائف[٤٥].

العمائر الإسلامية الباقية:

وأطلال مدينة شبام كوكبان القديمة المسورة بما تحتويه من منشآت دينية ومنشآت مدنية ومنشآت حربية جاءت جميعها تشكل نسيجاً معمارياً يعكس الملامح الرئيسية للعمارة والفنون الإسلامية بوجه عام جنباً إلى جنب مع ما يميزها من ملامح معمارية وفنية يمنية محلية تفصح عن شخصيتها اليمنية فى ظل الإطار العام للعمارة والفنون الإسلامية. فلقد شيدت مدينة شبام كوكبان على نمط المدن الإسلامية الأخرى من حيث التخطيط العام للمدينة يحتوى على المسجد الجامع وبجواره القصر أو دار الإمارة ثم السوق المركزى وعلى امتداده يقع المدخل الرئيسى للمدينة وأما عن المواد الخام التى استخدمت فى البناء يلاحظ استخدام المواد المتوافرة بالمنطقة مثل الأحجار الجيرية والرملية وصخور البازلت وكان استخدام الأحجار والصخور فى بناء الأسس والجدران والعقود فى المبانى القديمة واستخدمت معها مواد أخرى مساعدة ورابطة مثل جذوع الأشجار وألواح الخشب والزابور (اللبن) والطابوق (الطين المخمر بالتبن) بالإضافة إلى تقنيات البناء المتبعة محلياً[٤٦].

أولاً: المنشآت الدينية:

تضم مدينة شبام كوكبان مجموعة من العمائر الدينية الهامة تعود إلى عصور إسلامية مختلفة مثل المساجد والقباب الضريحية ومن أهم المساجد فى مدينة شبام كوكبان بلا منازع المسجد الجامع أو جامع شبام القديم ويقع إلى الخلف منه ــ وقريباً منه أيضاً ــ مسجد صغير تتوسطه قبة مركزية.

المسجد الجامع (جامع شبام القديم):

يرتبط هذا الجامع بالدولة اليعفرية التى اتخذت من شبام كوكبان عاصمة لها ولقد بدأ البناء بأمر من الأمير أسعد بن أبى يعفر الحوالى (٢٨٥ــ٣٠٣هـ./ ٨٩٨ ــ ٩١٥م.) [٤٧] ثم تواصل فيه التجديد والتعمير حتى نهاية الدولة اليعفرية[٤٨]. ولكن تعرض هذا الجامع للتلف والخراب فى كثير من العهود الإسلامية التى مرت على حكم اليمن، حتى أعيد تجديده فى العصر العثمانى[٤٩]. وتكمن أهمية هذا الجامع فيما يحمله من أساليب معمارية وفنية يمنية

---

(٤٤) شيحة: المرجع السابق. ص٤١.
(٤٥) ياسين وفرغلى: المرجع السابق. ص٥٢.
(٤٦) مشتت وآخرون: المرجع السابق. ص ٢٢؛ وأبو العلا (د. عبد الظاهر عبد الستار): التأثيرات البيئية على المبانى بمدينة شبام كوكبان التاريخية والحفاظ عليها. مجلة كلية الآداب. جامعة صنعاء. العدد (٢٠) لسنة ١٩٩٧م. ص ٥٠٩ ــ ٥١٠.
(٤٧) سليمان: المرجع السابق. ص١٩٨؛ عبد الرءووف (د. عصام الدين): اليمن فى ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول. دار الفكر العربى. القاهرة. ١٩٨٢م. ص ٩٨ ــ ١٠٦.
(٤٨) شيحة: المرجع السابق. ص٤١.
(٤٩) المرجع نفسه. ص ٤١.

قديمة امتزجت وانصهرت مع الأساليب المعمارية والفنية الإسلامية ولم تقتصر على ظهورها فى اليمن وإنما تخطت هذا القطر العربى الإسلامى إلى أقطار إسلامية أخرى. فلقد نشأ طراز زخرفة السقوف الخشبية اليمنية بالمصندقات[٥٠]. ويمكن مقارنة بعض عناصره المعمارية وكثير من وحداته الزخرفية بأمثلة خارج اليمن مثل جامع أحمد بن طولون[٥١] ومسجد الكوفة[٥٢] ومسجد قرطبة[٥٣]. ويعتبر من المساجد المعلقة إذ يصعد إليه بواسطة عدة درجات سلم من الحجر فى الناحية الشرقية حيث تؤدى إلى مساحة صغيرة مربعة الشكل تغطيها قبة ضحلة ويقع المدخل المؤدى إلى الجامع فى الناحية الشمالية من الجدار الشرقى[٥٤]. وتبلغ مساحة الجامع من الداخل حوالى (٢٥,٦٠×٢٣,٨٥م) يتوسطه فناء مكشوف (شكل رقم٦)[٥٥] مستطيل الشكل حوالى (١٤,٢٠× ١٢,٦٠م) ويلاحظ أن هذا الفناء قد حجب تمامًا عن الأروقة بحيث يبدو كأنه وحدة معمارية مستقلة بذاتها وذلك لبناء جدران مرتفعة فصلته عن الأروقة ويتم الدخول إليه عن طريق مداخل فى الجدارين الشمالى والجنوبى[٥٦]. وأهم أروقة الجامع هو رواق القبلة لاحتوائه على المحراب وما يحيط به من أشرطة كتابية مذهبة فلقد لعبت فيه الكتابات الأثرية دورًا كبيرًا خاصة النصوص القرآنية التى تكاد تملأ كتلة المحراب الجصية[٥٧].

وتقع مئذنة الجامع فى الناحية الجنوبية الشرقية تتكون من قاعدة مربعة من حجر الحبش الأسود يليها الطابق الأول عبارة عن بدن مثمن يعلوه بدن مستدير الشكل ويلفت الانتباه فى هذه المئذنة الأساليب الزخرفية الرائعة من الخط العربى تشتمل على آية الكرسى والزخارف الهندسية المضفورة (شكل رقم٧). وتعد هذه المئذنة وإن كانت ترجع إلى فترة لاحقة على عهد الدولة اليعفرية ، مثالاً طيبًا لنماذج المآذن اليمنية وزخرفتها بالجص[٥٨].

وتجدر الإشارة إلى بعض الأساليب المعمارية الهامة فى جامع شبام القديم تعود إلى أصولها إلى العمارة اليمنية القديمة يأتى فى مقدمتها أسلوب بناء الجدران الخارجة للمسجد بحيث تكون سميكة بأسفلها ثم ترتد مدماكًا كلما ارتفع الجدار وذلك بهدف متانة الجدار

---

(٥٠) خليفة (د. ربيع حامد): الفنون اليمنية فى العصر الإسلامى. القاهرة، ١٩٩٢م. ص ١٢٩ــ١٣٠.

(٥١) يحتل جامع أحمد بن طولون أهمية خاصة بين الآثار الإسلامية فى مصر وكان تاريخ الفراغ من الجامع فى سنة (٢٦٥هـ./ ٨٧٨م.) بنى على طراز المساجد العباسية فى مدينة سامراء ويتبع تخطيط مسجد الرسول فى المدينة المنورة. انظر: فرغلى (د. أبو الحمد محمود): الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية فى القاهرة. الطبعة الأولى. القاهرة، ١٩٩١م. ص٩٤.

(٥٢) شافعى (د. فريد): العمارة العربية فى مصر الإسلامية المجلد الأول (عصر الولاة). القاهرة، ١٩٧٠. ص٩٥.

(٥٣) الباشا (د. حسن): مدخل إلى الآثار الإسلامية. القاهرة، ١٩٩٠. ص١١٤ ــ ١١٥.

(٥٤) شيحة: المرجع السابق. ص٤٢.

(55) Finister, B.: Op. Cit. P. 120.

(٥٦) رجب: المرجع السابق. ص ٧١.

(٥٧) شيحة: المرجع السابق. ص٤٢ــ٤٣.

(٥٨) المرجع نفسه. ص٤٤.

وتخفيف الحمل عليه. وكان هذا الأسلوب متبعًا فى بناء العمائر اليمنية القديمة وعلى وجه الخصوص المعابد[٥٩].

ومن الأساليب المعمارية اليمنية القديمة التى ظهرت فى عمارة جامع شبام القديم أن سقفه أقيم مباشرة على أعمدة مرتفعة مأخوذة من عمائر يمنية قديمة (شكل رقم ٨) ويعرف هذا النوع من المساجد باسم "مساجد الدعائم"[٦٠]. وعادة ما يكون المسجد فى هذا الطراز مشتملاً على بيت صلاة أو بنية مستطيلة أو مربعة محاطة بأسوار مرتفعة ولا يعطى مظهره من الخارج أى شعور أو إحساس بما يحويه من سقف غاية فى الدقة والجمال الفنى يتكون من مصندقات خشبية[٦١]. ويضم جامع شبام القديم لا سيما رواق القبلة على أقدم النماذج الباقية فى اليمن من العصر الإسلامى لسقوف من المصندقات الخشبية (شكل رقم٩) [٦٢]. ولقد انتشر فى اليمن أسلوب "مساجد الدعائم" فى بعض البلاد الصغيرة التى تقع فى المناطق الجبلية. وهكذا يحمل جامع شبام القديم أهمية خاصة فى طراز زخارف السقوف اليمنية إذ أنه من المؤكد نسبته إلى الدولة اليعفرية فى شبام كوكبان من حوالى القرن (٣هـ./٩م.) كما أن الأمير أبا يعفر إبراهيم بن محمد بن يعفر الحميرى الحوالى هو الذى جدد الأسقف فى الجامع الكبير بصنعاء فى سنة (٣٣١هـ./ ٩٤٢م.) من خشب الساج وهى على غرار جامع شبام القديم[٦٣] يضاف إلى ذلك أن هذا الأسلوب المعمارى والفنى فى بناء وزخرفة أسقف العمائر الدينية ظهر فى بعض المساجد فى مصر وفلسطين وربما ظهر هذا النوع من الأسقف فى مصر منذ العصر الفاطمى. وإن كان ظهوره على نطاق ضيق كان فى ضريح الإمام الشافعى من العصر الأيوبى (٥٧٤ـ٦٠٨هـ./ ١١٧٨ـ١٢١١م.) [٦٤] ثم انتشر فى مصر فى العصر المملوكى البحرى فقد وصلتنا نماذج متعددة من هذه السقوف فى ضريح السلطان المنصور قلاوون ومدرسة ابنه السلطان الناصر محمد بالنحاسين. كما وصلتنا نماذج من هذه السقوف فى بعض القصور المملوكية نذكر منها قصر الأمير بشتاك وقصر الأمير طاز حوالى النصف الأول من القرن (٨هـ./ ١٤م.) [٦٥] ويكشف لنا هذا العدد الكبير من الأسقف المملوكية التى عرفت باسم "أسقف الحقاق" عن علاقة التأثير والتأثر التى كانت قائمة بين اليمن وسلاطين المماليك فى مصر[٦٦].

(٥٩) رجب: المرجع السابق. ص ٧٥.
(٦٠) خليفة: المرجع السابق. ص١٢٩ـ١٣٠.
(٦١) المرجع نفسه. ص١٣٠.
(٦٢) المرجع نفسه. ص ٣٥ـ٣٦. (شكل رقم ٢٧-٣١).
(٦٣) شيحة: المرجع السابق. ص٤٥، ١٤٣ـ١٤٤. (لوحة ٧٥،٧٦).
(٦٤) خليفة: المرجع السابق. ص١٣٢.
(٦٥) المرجع نفسه. ص١٣٢ـ١٣٣.
(٦٦) المرجع نفسه. ص١٣٣.

القباب الضريحية:

تضم مدينة شبام كوكبان بعض القباب الضريحية لعل من أهمها قبتان: إحداهما عبارة عن قبة ضريحية مغلقة تقع خارج المدينة على الطريق الرئيسى الداخل إلى البوابة الرئيسية للمدينة. أى أنها تقع فى منطقة الامتداد العمرانى للسكان خارج مدينة شبام كوكبان القديمة. وأما القبة الثانية فهى تقع إلى الغرب من الجامع الكبير فى داخل منزل خاص بأحد سكان المدينة وتعرف باسم قبة الشمس وهى مقامة على حنايا ركنية ذات عقود مزدوجة مدببة (شكل رقم١٠) [٦٧]. ونلاحظ أن مناطق الانتقال منخفضة وتبدأ من الأرض بارتفاع يبلغ حوالى ٩٠سم.). ويفتح فى الضلع الغربى باب معقود من الداخل بعقد مدبب يقابله حنية معقودة يشغل الجزء العلوي منها نافذة القبة مخروطية الشكل مزين بصفوف من الآجر (الياجور) وضعت بشكل مائل فأعطت شكلاً زخرفيًا. ويتوسط الضلع الشمالى المحراب الذى يقابله فى الضلع الجنوبى نافذة ضحلة أو صماء معقودة بعقد مدبب يحيط بها إطار خارجى بارز عبارة عن حنية غير كاملة[٦٨]. وأما المحراب فهو عبارة عن محراب مجوف يتخذ شكل الحنية المعقودة بعقد مدببة ذى استطالة ومحمول على عمودين بشكل غير منتظم الارتفاع لأن العمود الأيمن أكثر ارتفاعًا من نظيره الأيسر. ويحتويان على زخرفة هندسية تزين بدن وتاج كليهما. ويزين واجهة هذا العقد شريط كتابى بالخط النسخى نصه: "لا إله إلا الله محمد رسول الله الصبر جميل".

ثانياً: المنشآت المدنية:

تنوعت العمائر والمنشآت الأثرية الباقية من مدينة شبام كوكبان القديمة بحسب الوظائف والخدمات التى تؤديها يأتى فى مقدمتها السوق القديم (المركزى) ودار الجمرك (السمسرة) والحمام القديم ودار الحكومة (الديوان) وكلها تحمل الأساليب المعمارية اليمنية فى العصر الإسلامى منذ تأسيس مدينة شبام كوكبان الإسلامية فى عهد الدولة اليعفرية مرورًا بالعهود الإسلامية التى تعاقبت على حكم اليمن حتى العهد الحديث.

السوق القديم (المركزى):

يعتبر هذا السوق القديم بما يشتمل عليه من مجموعة كبيرة من الدكاكين نموذجًا متكاملاً يندر وجوده فى مدن إسلامية أخرى من حيث العدد الباقى من الدكاكين القديمة. ويقع السوق القديم (المركزى) بجوار الجامع الكبير بمدينة شبام كوكبان كما هو الحال فى المدن الإسلامية الأولى مثل مدينة الكوفة ومدينة البصرة فى العراق ومدينة الفسطاط فى مصر وسامراء فى العراق ويتكون السوق من مجموعة من الدكاكين أو الحوانيت مفتوحة من جانبى الطريق[٦٩]. وبكل صناعة سوق خاص ولكل تجارة أيضًا فهناك ما هو للصاغة أو النحاسين

---

(٦٧) اعتمدت فى دراسة ووصف هذه القبة الضريحية على زيارة ميدانية كان من الصعب تكرارها تى يمكن رفعها معماريًا مع أخذ القياسات الدقيقة.

(٦٨) أتقدم بجزيل الشكر للسيد أ.د/ ربيع حامد خليفة على ما أمدنى به من معلومات حول هذه القبة الضريحية أفادتنى كثيرًا.

(٦٩) شافعى: المرجع السابق. ص٣٤٩.

أو النجارين أو السماكين أو العطارين أو الجوخ أو الخضر أو القمح إلى ما هنالك من بضائع وصنائع[٧٠].

ويضم سوق شبام كوكبان ــ موضع الدراسة ــ ما يزيد على مائة وستين دكانًا موزعة على عدة أسواق بحسب الصناعات والبضائع مثل سوق الملح وسوق العطارة وسوق القشر وسوق الحدادة وسوق الحب وسوق الزبيب (شكل رقم١١) [٧١]. والدكان أو الحانوت منها كمثال يتكون مسقطه من مستطيل حوالى (٢,٢٠× ١٤,٨٠م) يحتوى على فتحة باب تفتح على الشارع بفتحة مستطيلة تبلغ حوالى (١,٦٢×١,٢٠م) ونتناول بعض النماذج من هذه الدكاكين بكل من سوق القشر وسوق الملح التى ما تزال تحتفظ بحالة جيدة تعطينا صورة واضحة جلية عن الأساليب المعمارية والزخرفية لهذه المجموعة الكبيرة (١٦٠ دكانًا) بسوق شبام كوكبان القديم.

توجد ثلاثة دكاكين (دكان رقم ٢٠ ودكان رقم ٢١ ودكان رقم ٢٢) فى نهاية سوق القشر وهى متلاصقة على صف واحد تتقدمها ظلة أو سقيفة محمولة على عمودين غير أصليين لأنهما من جذوع الشجر بينما بنى كتف من الحجارة عند الطرف الأيمن للدكان رقم (٢٢) بدلاً من العمود الثالث. ويعد الدكان الأوسط (دكان رقم ٢١) على درجة كبيرة من الأهمية لاحتواء الباب الخشبى الذى يغلق عليه على توقيع النجار وتاريخ صناعته إذ حفر على مصراعى الباب بالخط النسخى ما يلي: على المصراع الأيمن ما نصه "عمل عبد الله محمد سيف(؟)". وعلى المصراع الأيسر ما نصه "شهر محرم سنة ١٣٠٣" (شكل رقم١٢) ويفهم من هذا النص أن الصانع الذى قام بصنعه هو النجار اليمنى "عبد الله محمد سيف (؟)" وذلك فى شهر المحرم من سنة ١٣٠٣هجرية (أى ما يوافق سنة ١٨٨٥م) ويتكون هذا الباب من مصراعين وهو مستطيل الشكل يبلغ ارتفاعه حوالى (١,٦٢م) واتساعه حوالى (١,٢٠م) وارتفاع الباب الخشبى بدون الإطار أو "البر" حوالى (١,٥٠م) وكذلك اتساعه حوالى (١,٠٢م) واتساع المصراع (أو الضلفة) يبلغ حوالى (٥٣سم) ويزين مصراعى (ضلفتى) الباب زخارف هندسية ونباتية محفورة على الخشب تعكس ما وصل إليه فن صناعة وزخرفة الأخشاب اليمنية الإسلامية من تطور وازدهار حتى مطلع القرن (١٤هـ./ ٢٠م.) ويحتوى هذا الباب على "أنف" يخفى خط التصاق المصراعين وهو مثبت فى المصراع الأيمن ويلاحظ مدى الدقة والإتقان فى الزخارف الهندسية المحفورة لتزيين أنف الباب[٧٢].

وتوجد بسوق الملح ثلاثة دكاكين متجاورة (دكان رقم ٥٣ ودكان رقم ٥٤ ودكان رقم ٥٥) تتقدمها سقيفة محمولة على أعمدة ضخمة (أساطين) بنيت من الحجر تذكرنا بطريقة بناء الأساطين فى العمائر اليمنية القديمة. وفى حالة اختيار الدكان (رقم ٥٤) كمثال لدراسة تخطيط الدكاكين فى سوق الملح نجد أنه يتطابق مع باقى الدكاكين بالسوق القديم بشبام وكبان من حيث التخطيط إذ يفتح على الشارع بفتحة باب اتساعها حوالى (١,٧٨م) واتساع الباب الخشبى حوالى (١,١١م) وسمك الجدار حوالى (٤٠سم) وعمق الدكان من الداخل حوالى

---

(٧٠) غالب (د. عبد الرحيم): موسوعة العمارة الإسلامية الطبعة الأولى. بيروت، ١٩٨٨م. ص ٢٣٠ــ٢٣١.

(٧١) أتقدم بأسمى آيات الشكر والامتنان للزميل أ.د/ عمار يوسف ذنون الأستاذ بكلية الهندسة جامعة صنعاء لعمل "المخطط العام" لسوق شبام كوكبان القديم وهو عمل غير مسبوق.

(٧٢) غالب: المرجع السابق. ص ٧٢.

(٤,٨٠م) ويلاحظ أن السقف مسطح ومغطى بجذوع الأشجار وبعض الكتل الخشبية. والجزء السفلى من الدكان منخفض المستوى ويوجد به مستوى ثان.

ويتضح مما سبق أن السوق القديم (المركزى) بشبام كوكبان يقع بجوار الجامع الكبير للمدينة وهو الأسلوب المتبع غالبًا فى المدن الإسلامية. وتم تقسيمه إلى أسواق فرعية للصناعات والبضائع المختلفة وكل سوق يشتمل على مجموعة من الدكاكين ذات مساحات متساوية تقريبًا تفتح على جانب الشارع وتتقدمها الظلة أو السقيفة. وتكوين الدكان من الداخل عبارة عن مساحة مستطيلة الشكل تتكون من مستويين وقد يحتوى على بعض الأرفف الحجرية. والراجح أن هذا السوق بموقعه وتخطيطه يعود إلى عهد الدولة اليعفرية ثم توالت عليه أعمال التجديد والإصلاح على مر العهود الإسلامية حتى تم تجديد بعض أجزاء منه فى مطلع القرن (١٤هـ./٢٠م.) وعلى وجه التحديد فى سنة (١٣٠٣هـ./ ١٨٨٥م.) كما ورد بالنص المحفور على الباب الخشبى للدكان (رقم ٢١) بسوق القشر.

السمسرة (دار الجمرك):

تقع بالقرب من الجامع الكبير وعلى بعد حوالى خمسة وسبعين مترًا من المدخل الرئيسى للمدينة. وتظل على ساحة السوق القديم (المركزى) أى أنها فى موقع متميز من هذا السوق.

والسمسرة بناء معمارى متعلق بالتجار والتجارة والجمع سماسر وهو يشبه من حيث الوظيفة الوكالة فى العمارة الإسلامية فى مصر ومن المعروف أن الوكالة طراز معمارى أعد سكنًا للتجار الشرقيين وحفظ بضائعهم وتتكون الوكالة من ثلاثة إلى أربعة طوابق تشتمل على حجرات وتحيط هذه الطوابق بالفناء أو الحوش (الصحن) [٧٣]. ولأن بلاد اليمن كانت مركزًا تجاريًا هامًا فلقد انتشرت فى مدنها المبانى والمنشآت التجارية تستخدم لشئون التجارة تسمى السماسر والسمسرة تجمع فى داخلها بين وظائف الخان أو الفندق والوكالة[٧٤]. غير أنها أقرب إلى وظيفة الوكالة المتعارف عليها فى مصر والشام. وكان التاجر يرسل بضاعته ليتم بيعها من قبل تجار يقيمون بالسمسرة[٧٥]. ولقد كان فى أغلب الأحوال للحكومة الإشراف على السمسرة بواسطة موظف حكومى كان يعرف باسم "شيخ التجار" أو "شاهبندر التجار" وكان بعض السماسر ملكًا للحكومة وبعضها الآخر كان ملكًا للأفراد الذين كانوا يقومون ببناء وإدارة وكالات وسماسر خاصة وكان يشترط فيمن يقوم ببنائها تسمى باسم مؤسسها كما كانت تنقل من صاحبها لورثته بعد وفاته وكان صاحب الوكالة أو السمسرة يسمى وكيل التجار أو شيخ التجار وأحيانًا شاهبندر التجار[٧٦]. ولم تقتصر السماسر على المدن اليمنية الكبيرة مثل صنعاء وعدن وإنما انتشرت فى معظم المدن اليمنية.

وسمسرة شبام كوكبان عبارة عن بناية متعددة الطوابق مؤلفة من ثلاثة طوابق والبناية بحالة سيئة جدًا ومتهدمة من الداخل ومن ثم كانت صعوبة الدخول إليها ودراستها من

---

(٧٣) لمعى (د. صالح): التراث المعمارى فى مصر. بيروت، ١٩٨٤م. ص٥٩.

(74)Lewcock, R.: The Building of the Suq, Market. London, 1983. P. 277.

(٧٥) حسين (د. محمود إبراهيم): دراسة لبعض المنشآت التجارية اليمنية فى العصر الإسلامى بمدينة صنعاء. مجلة كلية الآثار. جامعة القاهرة. العدد الرابع (١٩٩٠م.) ص ٤٥.

(٧٦)المرجع نفسه. ص ٤٥.

الداخل وإجراء القياسات اللازمة. وتعد واحدة من نماذج السماسر التى أوقفتها نساء اليمن فى العصر الإسلامى مما يفصح عن دورهن فى الأعمال الخيرية فى المجتمع اليمنى وقتذاك فلقد أوقفتها على مدينة شبام كوكبان السيدة الشريفة "آمنة بنت عبد القادر" ضمن الأعمال الخيرية التى أوقفتها على هذه المدينة خصوصًا. ويقال إن ورثة السيدة الشريفة "آمنة" قد سمحوا لشخص يدعى "القهالى" بأن يستأجر هذه السمسرة فاستغلها أسوأ استغلال وقام بطمس الكتابات والنقوش بأعلى مدخلها وربما كان ذلك عن عمد منه ــ قبل حوالى خمس وعشرين سنة مضت.

وجدير بالذكر أن الواجهة الرئيسية ــ للسمسرة ــ المطلة على ساحة السوق ما تزال تحتفظ بمعظم ملامحها ووحداتها المعمارية والزخرفية (شكل رقم١٣) فهى تتكون من ثلاثة طوابق: يحتوى الطابقان الثانى والثالث على النوافذ المعقودة بعقود نصف دائرية بعضها غشيت بقطع من الأحجار لتؤلف شكلاً جماليًا تتشابه وزخارف النوافذ المغشاة بالجص المفرغ الذى يسمح بدخول الهواء والضوء إلى حجرات السمسرة. وأما الطابق الأرضى فيحتوى فى منتصف الجدار تقريبًا على فتحة باب معقودة بعقد نصف دائرى مرتفع يحصر بداخله الباب المؤدى إلى داخل السمسرة حيث الفناء (الصحن) ويتكون من ضلفة واحدة كبيرة مصفحة ببعض صفائح حديدية مثبتة بمسامير حديدية مكويجة ويحتوى الباب على باب صغير يعرف باسم "الفرخ" فى اليمن وهو المعروف فى مصر باسم "باب خوخة" ليتحكم فى حركة الدخول والخروج للأفراد إلى ومن السمسرة. وبوجه عام تتشابه هذه السمسرة مع السماسر اليمنية لا سيما تلك الموجودة فى مدينة صنعاء[٧٧]. ويوجد بأعلى العقد القوسى الذى يتوج فتحة باب السمسرة لوحة رخامية تحمل نصًا كتابيًا مغطى معظمه بطبقة من الجص ولا يظهر من النص سوى حكمة "تاريخها" وربما كان هذا اللوح التأسيسى يحمل معلومات هامة عن تاريخ واسم منشئ (أو صاحب) السمسرة فى صياغة شعرية وما يلي كلمة "تاريخها" نقش بالحروف العربية على طريقة حساب الجمل التى تعتمد على تحويل الحروف العربية إلى أرقام عددية وهو أسلوب انتشر فى تسجيل النصوص الإنشائية على العمائر الإسلامية[٧٨].

دار الحكومة (الموظفين):

تقع هذه البناية التى يطلق عليها اسم دار الحكومة أو الموظفين إلى يسار الداخل من الباب الرئيسى لمدينة شبام كوكبان القديمة. وتتكون من ثلاثة طوابق الأصلى منها هو الطابق الأول بينما الطابقان الثانى والثالث قد أضيفا حديثًا. والمدخل الرئيسى يتوسط واجهة البناية المطلة على الشارع يعلوه نص كتابى بالخط النسخى المتقن يتضمن أبياتًا شعرية يتخللها تاريخ إجراء بعض التجديدات والإصلاحات فى دار الحكومة وذلك فى سنة (١٢٠٠هجرية) توافق ذلك حوالى سنة (١٧٨٥ ميلادية).

---

(77)Serjeant, R.B. & Lewcock, R.:Sana'a An Arabian Islamic City. London, 1983. P. 290-291.

(٧٨)الباشا (د. حسن): المرجع السابق. ص ٢٣١ــ ٢٣٢.

الحمام القديم:

كانت الحمامات من الأبنية المهمة فى العالم الإسلامى وذلك نظرا لأهميتها فى التطهر والنظافة وكان يلاحظ فى بنائها أن تصمم بحيث تتيح للمستحم أن ينتقل تدريجيا من الجو الحار إلى الجو البارد حتى لا يصاب بأذى. وكان الحمام يسخن عن طريق إيقاد النار تحت أرضيته وكان يشتمل على أنابيب الماء الساخن والبارد داخل الجدران[٧٩]. ومما يسترعى الانتباه أن الحمامات كانت من أقدم الآثار الإسلامية التى وصلتنا. ومثال ذلك حمام قصير عمرا فى بادية الشام[٨٠].

ويقع الحمام القديم بمدينة شبام كوكبان فى الجهة الشمالية بالقرب من سور المدينة. وعلى الرغم من صغر مساحته إلا أن المعماري اليمنى المسلم نجح فى تصميمه وتنفيذه كحمام متكامل يشتمل على معظم الوحدات المعمارية للحمام مما يمكن القول بأنه تحفة معمارية نادرة. لولا الإهمال وسوء الاستخدام المستمر لهذا الحمام الذي يستخدمه أهالى مدينة شبام كوكبان من الرجال والنساء حيث تستخدمه النساء فى يومين فقط من الأسبوع وباقى أيام الأسبوع للرجال.

ونجح المعمار فى تصميم الحمام على هيئة مستويات عديدة حتى تستوعب هذه المساحة الصغيرة الوحدات المعمارية للحمام ويتكون من المدخل الرئيسى الذى يقع فى الضلع الشرقى حيث يؤدى إلى صالة مربعة الشكل تشغل أرضيتها فسقية من الرخام مثمنة الشكل (شكل رقم١٤) ويغطيها قبة زينت من الداخل بزخارف جصية عبارة عن عناصر زخرفية نباتية وهندسية وكتابية. ولكن للأسف غطيت هذه الزخارف الجصية الهامة لاسيما الشريط الكتابى بطبقة من الرنج (الدهان) بأسلوب ردئ مما طمس هذه النصوص الكتابية وما تحمله من معلومات وثائقية هامة. ويلى الصالة حجرة أرضيتها ذات مستوى مرتفع عن الصالة وهى تمثل حجرة خلع الملابس ويطلق عليها فى المشرق اسم "المشلح" وفى مصر ومراكش اسم "المسلخ"[٨١]. يليها قاعة أكثر دفئاً من السابقة وتسمى فى مصر "البيت الأول". والقاعة الثانية هى المدفأة الأولى ويطلق عليها فى دمشق "الوسطانى أو الجوانى" وفى فاس "الوسطى" وفى تونس "البيت السخن". أما القاعة الثالثة فهى الحارة أو المدفأة الثانية أو العراقة حيث يتصبب العرق فالحرارة مرتفعة فيها وجوها يعبق بالبخار وبالعطور وتسمى فى مصر باسم "الحرارة"[٨٢]. وهذه القاعة هى مكان الاستحمام بالأقبية الأسطوانية (شكل رقم١٥).

ويتبع هذا الحمام نظام الحمامات الرومانية الذى ظهر فى أقدم نماذج الحمامات الإسلامية الباقية وهو حمام قصير عمرا فى بادية الشام[٨٣]. ويغلب على الظن أن الحمام القديم بشبام كوكبان هو الحمام الذى يعود إلى عهد الدولة اليعفرية كما أنه الحمام الوحيد فى

---

(٧٩) الباشا: المرجع السابق. ص١٦٥.

(٨٠) كريزويل (ك.): الآثار الإسلامية الأولى. نقله إلى العربية عبد الهادى عبلة استخرج نصوصه وعلق عليه أحمد غسان سبانو. دمشق ١٩٨٤. ص ١٢٧.

(٨١) غالب: المرجع السابق. ص١٤٠.

(٨٢) المرجع نفسه. ص١٤١.

(٨٣) الباشا: المرجع السابق. ص ١٦٦.

المدينة[٨٤] ومن ثم فلقد مرت عليه الكثير من أعمال الإصلاح والتجديد خلال العهود الإسلامية التى حكمت فى اليمن حتى العهد العثمانى[٨٥].

ثالثًا: المنشآت الحربية:

كان من وسائل المسلمين فى الدفاع عن مدنهم ضد المعتدين هو بناء الاستحكامات العسكرية مثل الأسوار والأبراج وأبواب المدن[٨٦]. وتحتوى مدينة شبام كوكبان القديمة على سور يحيط بها من الجبل إلى الجبل أى جبل كوكبان الذى يحمى الضلع الغربى للمدينة وفتحت فى هذا السور أربع بوابات. إذ يمتد السور من الجانب الشمالى للمدينة متعامدًا على جبل كوكبان ويتخلله بوابة بينما يسير السور فى الجانب الشرقى موازيًا لجبل كوكبان ويتخلله بوابتان إحداهما البوابة الرئيسية لمدينة شبام كوكبان. ويسير الجانب الجنوبى للسور متعامدًا على جبل كوكبان ويتخلله بوابة حجرية كبيرة بذلك يكتمل سور المدينة. وتجدر الإشارة إلى أن مدينة شبام كوكبان لم يشيد حولها سور فى بداية الدولة اليعفرية. ولكن حينما بدأت الأخطار العسكرية تهدد بالهجوم عليها من قبل الولاة العباسيين على اليمن وأيضًا امتداد نفوذ الأئمة الزيدية واستيلائهم على مدينة صنعاء أمر الأمير يعفر بن عبد الرحيم الحوالى بتشييد سور ضخم حول المدينة يحميها من هجوم المعتدين[٨٧]. واعتمادًا على ما ذكره قطب الدين النهروالى فلقد كان السور القديم "من اللبن الشديد المنسبك كالحديد طوله خمسة آلاف ذراعًا وعرضه خمسة عشر شبرًا "[٨٨] أى أن هذا السور يبلغ طوله حوالى (٧٢,٤م.) وعرضه أو سمكه يبلغ حوالى (٣,٠٠م.) وفى الجزء القديم الباقى من السور فى الجهة الشمالية أى بالقرب من الحمام القديم توجد بقايا لبرج أسطواني الشكل من الطوب اللبن به فتحات مزاغل لرمى السهام ولكنه بحالة سيئة فلقد تهدمت معظم وحداته المعمارية. وجدير بالذكر أنه عندما فتح الوزير سنان باشا مدينة شبام كوكبان فى سنة (٩٧٧هـ./ ١٥٧٠م.) أمر بهدم سورها وبعض بواباتها[٨٩].

وأما عن البوابات التى فتحت فى سور مدينة شبام كوكبان القديمة فهى بوابة الشقبى فى الناحية الشمالية وبوابة المعين فى الناحية الشمالية الشرقية وبوابة الفجرين فى الناحية الجنوبية الشرقية وبوابة الأهجر فى الناحية الجنوبية. ولقد تغيرت أسماء هذه البوابات مع مرور الزمن مثال ذلك البوابة الرئيسية للمدينة التى تقع فى الناحية الشمالية الشرقية يطلق عليها "باب المدينة والباب الجمهورى".

ويقع باب المدينة أو المدخل الرئيسى لمدينة شبام كوكبان القديمة على الطريق الرئيسى الذى يربط شبام بمدينة صنعاء والمدن المجاورة لها. ومن حيث التخطيط المعمارى يفتح على المدينة بعقد نصف دائرى يليه عقد قوسى يرتكز على كتف من قطعة واحدة من الحجر نقش عليها نص بالخط المسند بينما الكتف الأيمن أكمله المعمار بمدماك. والارتفاع من

---

(٨٤)كريزويل: المرجع السابق. ص١٢٧.

(85)Serjeant, R.B. & Lewcock, R.: Op. Cit. P. 297.

(٨٦)الباشا: المرجع السابق. ص١٤١.

(٨٧)الهمدانى: صفة جزيرة العرب. ص ٢١١،٢١٢.

(٨٨)النهروالى: المصدر السابق. ص٢٩٢.

(٨٩)المصدر نفسه. ص٢٩٣.

الأرض حتى بداية العقد القوسى حوالى (٢,٦٠م.) واتساع فتحة المدخل حوالى (٢,٢٠م.) ويوجد فى المستوى ما بين العقد نصف الدائرى والعقد القوسى نص تسجيلى من سطرين بالنحت البارز على الحجر بالخط النسخى ما نصه : السطر الأول "ما شاء الله" والسطر الثانى "سنة ١٣٣٢ هجرية" ويفهم منه أن بعض أعمال الإصلاح والتجديدات قد أجريت لهذه البوابة فى سنة (١٣٣٢هـ./ ١٩١٣م.) (شكل رقم٤).

ويغلق على المدخل باب خشبى من مصراعين مصفحين بأشرطة من الحديد المثبتة بواسطة مسامير حديدية غليظة مكوبجة. والباب يفتح فى مصراعه الأيمن باب صغير يعرف فى مصر باسم "باب خوخة" ويعرف عند أهل شبام كوكبان باسم (الفرخ) (شكل رقم١٦) ويصل ارتفاع الباب الخشبى الكبير المصفح حوالى (١,٥٠م.) بينما يصل طول الباب الصغير (الفرخ) حوالى (١,٢٠م.) واتساعه حوالى (٧٢سم.) ويغلق الباب من الداخل بواسطة الضرابة الخشبية (أى القفل الخشبى القديم) فيما يغلق باب الخوخة (الفرخ) من الداخل بواسطة مزلاج حديدى صغير. أما الباب الخشبى الكبير المصفح فقد أضيفت إليه وسيلة أخرى لغلقه عند الضرورة وهى عبارة عن مزلاج خشبى كبير من لوح خشبى (عرق) سميك بطول اتساع مدخل المدينة بحيث يستقر فى دخلتين متقابلتين فى الجدار خلف الباب مباشرة. ويلى فتحة الباب الكبير المصفح دركاة الدخول عبارة عن مساحة مستطيلة تقع خلف المدخل مباشرة وتفتح بعقد نصف دائرى على المدينة من الداخل حيث ساحة السوق القديم (المركزى) ثم السمسرة (دار الجمرك) ثم جامع شبام القديم. وتجدر الإشارة إلى أنه توجد بأعلى هذه البوابة الرئيسية للمدينة حجرات بنيت حديثا لعل الهدف منها أن تؤدى وظيفة الحراسة والمراقبة.

مما سبق يتضح لنا أن مدينة شبام كوكبان فى اليمن تعد واحدة من المدن الإسلامية الهامة التى كانت تحتل مكانة بارزة فى تاريخ اليمن القديم باعتبارها إحدى مدن القيعان اليمنية القديمة فى حوالى القرن الثانى والأول قبل الميلاد وازدهرت فى ظل مملكة سبأ ومملكة حمير وكانت عامرة بالمنشآت اليمنية القديمة التى تحمل الأساليب المعمارية والفنية القديمة قبل الإسلام والتى استمرت وظهرت فى العمائر الإسلامية التى شيدها اليعفريون منذ القرن (٣هـ./ ٩م.) فى شبام كوكبان نذكر منها طريقة بناء الجدران بحيث ترتد مدماكا إلى الداخل كلما ارتفع الجدار وطريقة بناء سقف جامع شبام القديم مباشرة على الأعمدة المرتفعة بدون عقود وهو طراز "مسجد الدعائم" وكان من نتيجته استخدام زخرفة الأسقف بطريقة "المصندقات" ومن ثم استحقت مدينة شبام كوكبان أن تكون مدينة عربية إسلامية وحرصت فى هذا البحث على دراسة أهم الآثار الإسلامية الباقية فى هذه المدينة من منشآت دينية كالمسجد الجامع (جامع شبام القديم) والقبة الضريحية.ومنشآت مدنية مثل السوق القديم (المركزى) والذى يضم حوالى (١٦٠ دكانا) مقسمة إلى أسواق بحسب الصناعات والبضائع ويندر أن نجد هذا العدد من الدكاكين فى سوق بمدينة إسلامية. والسمرة (دار الجمرك) التى تقع فى ساحة السوق. ودار الحكومة (الموظفين). والحمام القديم وهو تحفة معمارية نادرة برهن المعمار اليمنى المسلم على قدرته على تصميم الوحدات الكاملة للحمام بالرغم من صغر المساحة. وأما المنشآت الحربية فلقد اشتملت على السور الذى كان يحيط بالمدينة من ثلاثة أضلاع أما الضلع الثالث فيتمثل فى جبل كوكبان شاهق الارتفاع. وما تزال بقايا السور القديم وكذلك بعض البوابات التى كانت تفتح عليه لا سيما الباب الرئيسى.

وجدير بالذكر أن جميع هذه الآثار المعمارية الباقية ترجع فى الأصل إلى عهد الدولة اليعفرية (٢١٤ـ٣٩٣هـ./ ٨٢٩ـ١٠٠٢م.) وإن كانت قد تعرضت لبعض الإهمال أو التخريب خلال بعض العهود والأسرات الإسلامية التى حكمت فى اليمن إلا أنها قد نالت بعض أعمال الإصلاح والتجديد فى بعضها ولا سيما فى العصر العثمانى مع احتفاظها إلى حد كبير بطابعها وطرازها الأول مثال ذلك جامع شبام القديم والسوق القديم والحمام القديم والسور وبواباته.

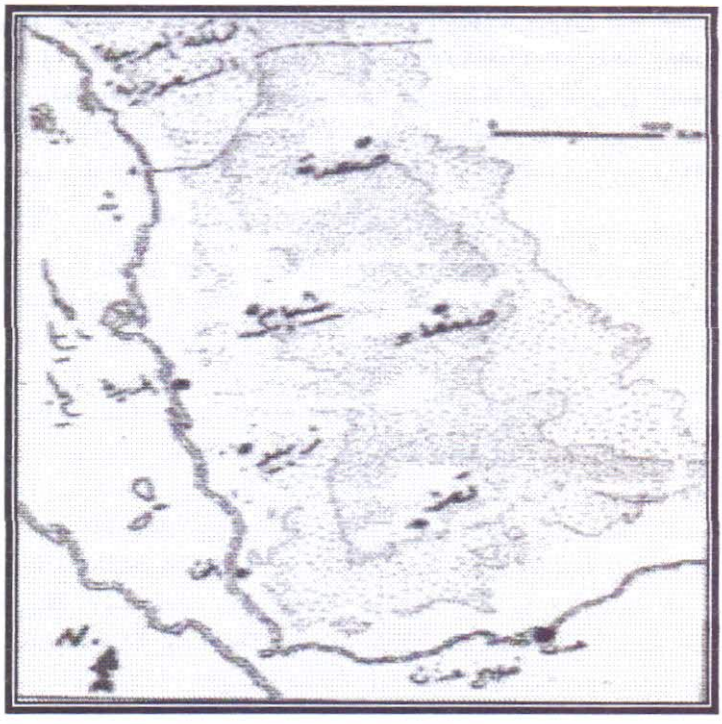

شكل رقم (١)
خريطة توضح موقع مدينة شبام كوكبان في شمال اليمن

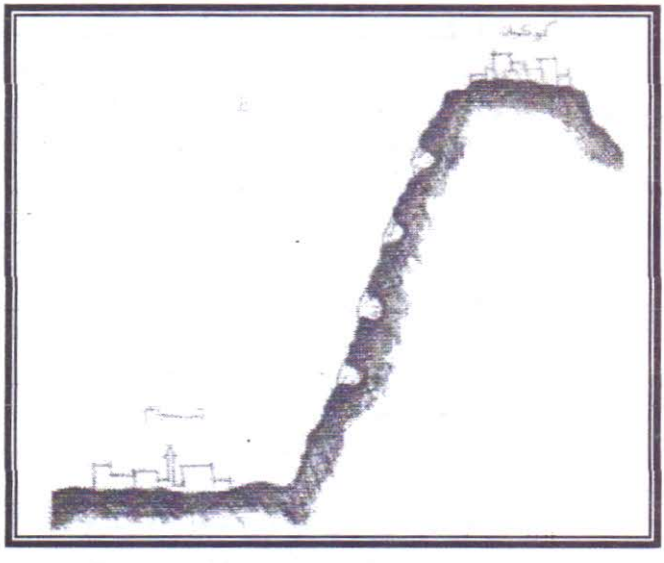

شكل رقم (٢)
كروكي يوضح موقع مدينة شبام كوكبان من جبل كوكبان

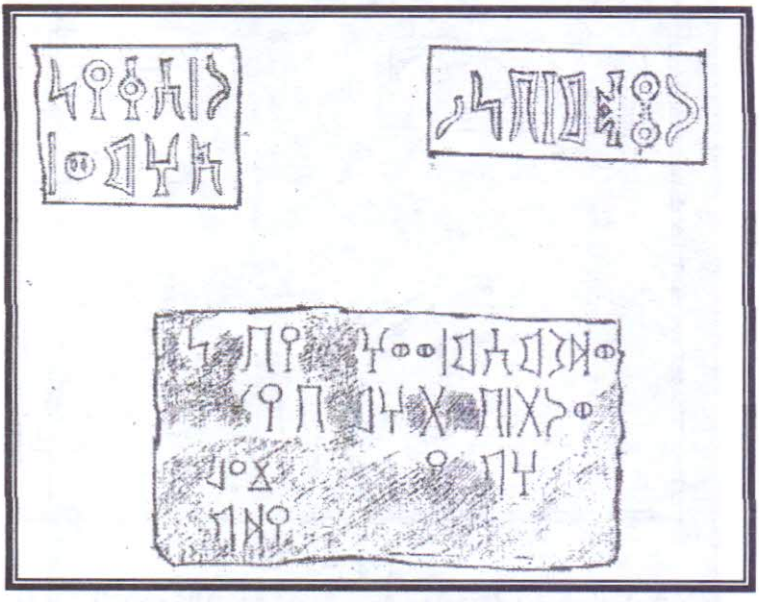

شكل رقم (٣)
مجموعة من الأحجار القديمة المنقوشة بالخط اليمني القديم "المسند "

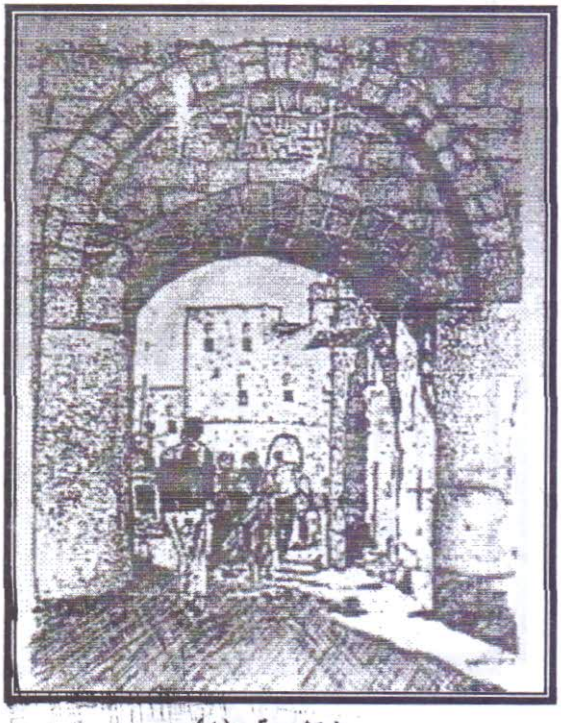

شكل رقم (٤)
المدخل الرئيسي لمدينة شبام كوكبان القديمة

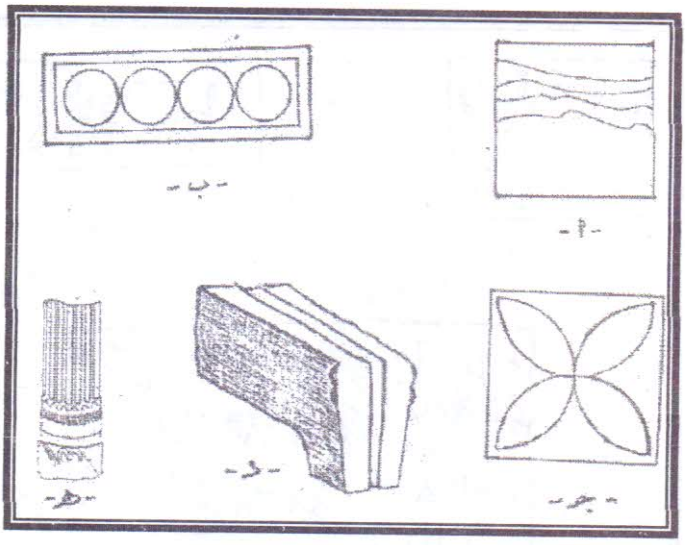

شكل رقم (٥)
مجموعة من الأحجار القديمة ذات زخارف متنوعة من شبام كوكبان

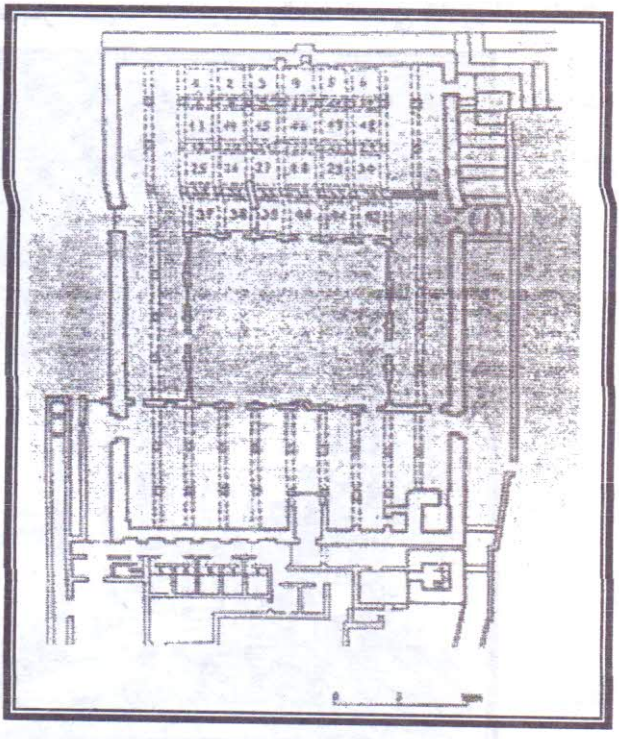

شكل رقم (٦)
المسقط الأفقي لجامع شبام القديم (عن: شيحة : مدخل إلي العمارة ، شكل ٣)

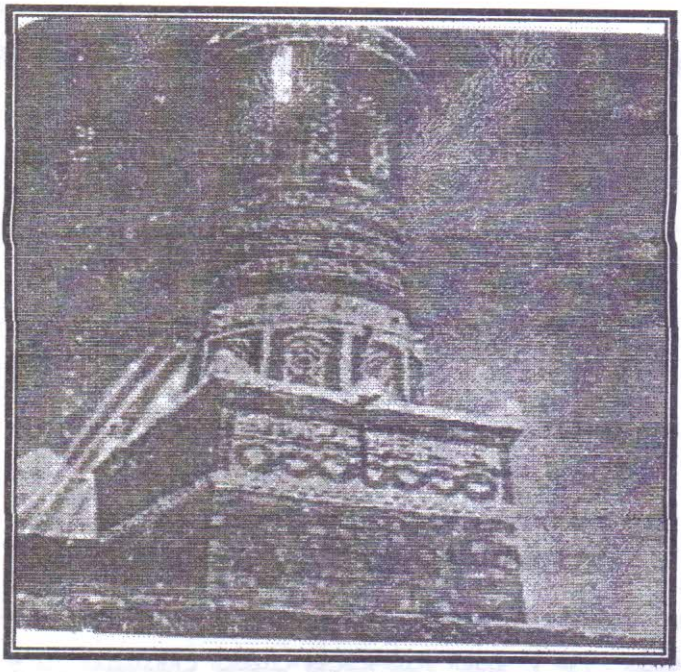

شكل رقم (٧)
مئذنة جامع شبام القديم

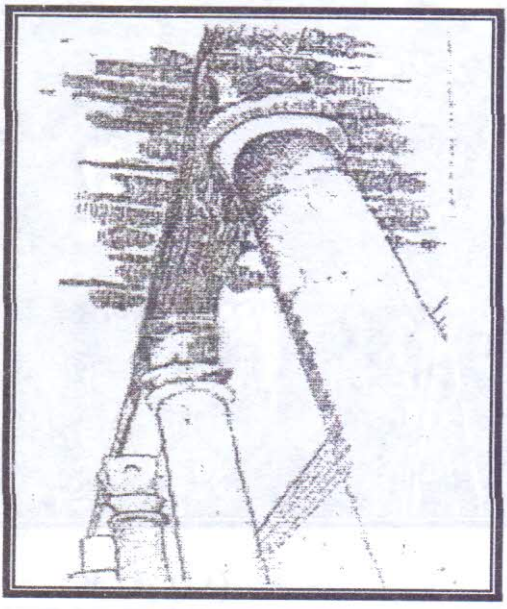

شكل رقم (٨)
الأعمدة المرتفعة تحمل السقف مباشرة بجامع شبام القديم

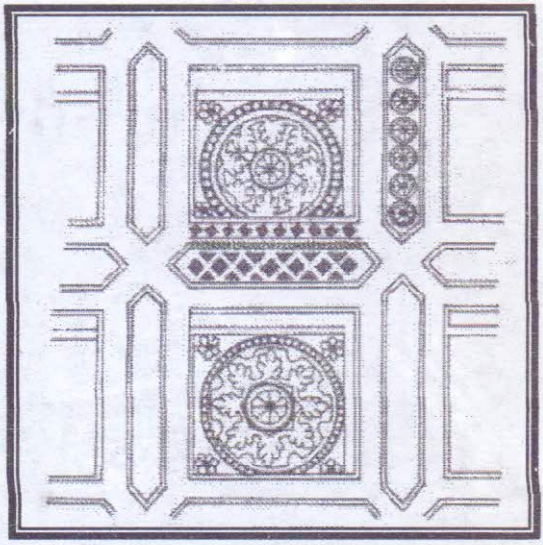

شكل رقم (٩)
نماذج من المصندقات الخشبية بجامع شبام القديم (عن : خليفة : الفنون اليمنية ، شكل رقم ٣١)

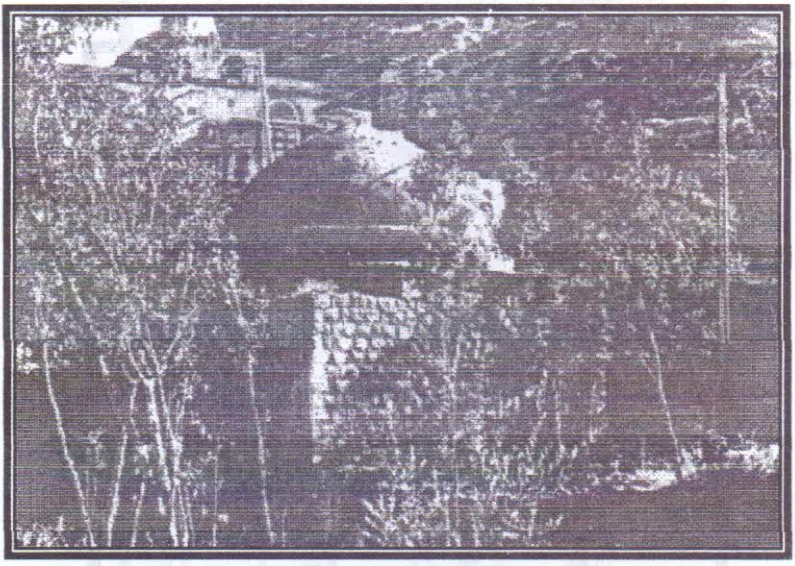

شكل رقم (١٠)
قبة ضريحية بالغرب من جامع شبام القديم

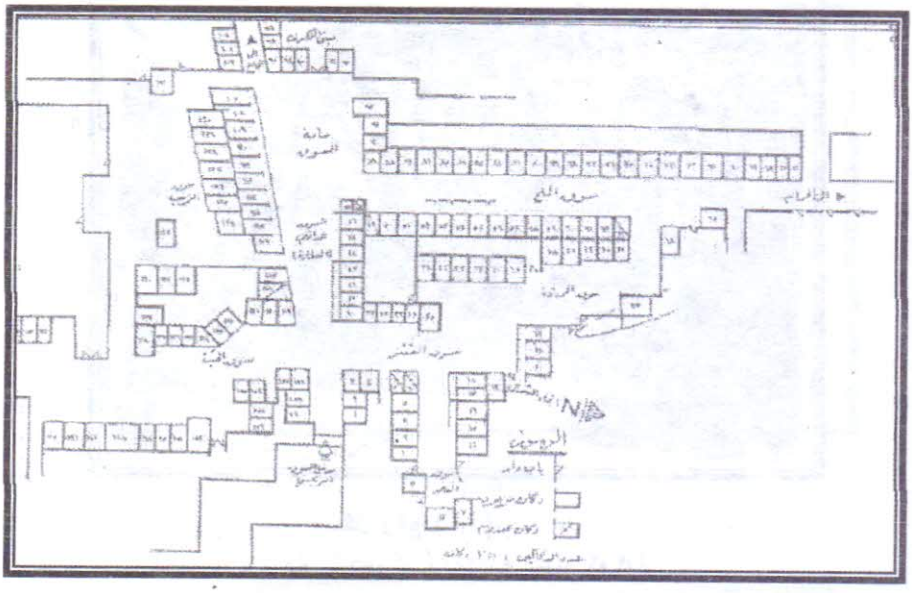

شكل رقم (١١)
المخطط العام للسوق القديم بمدينة شبام كوكبان

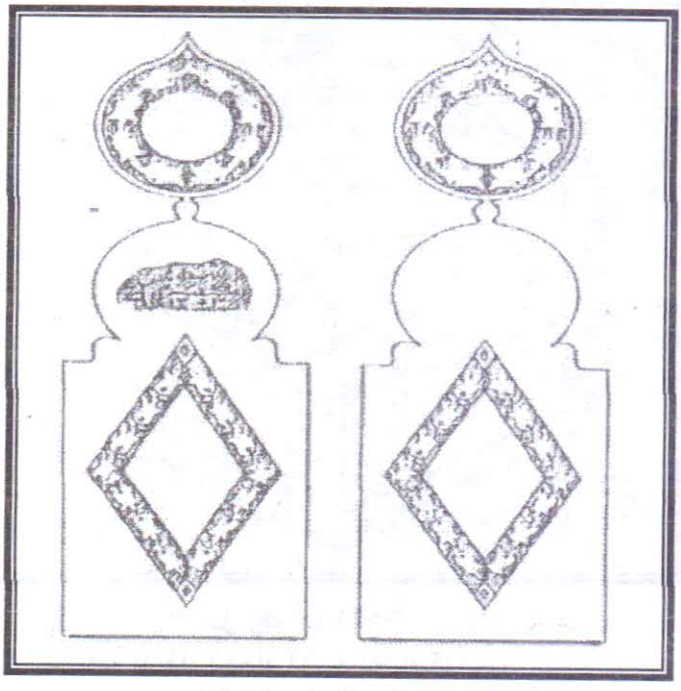

شكل رقم (١٢)
الباب الخشبي للدكان (رقم ٢١) بسوق القشر

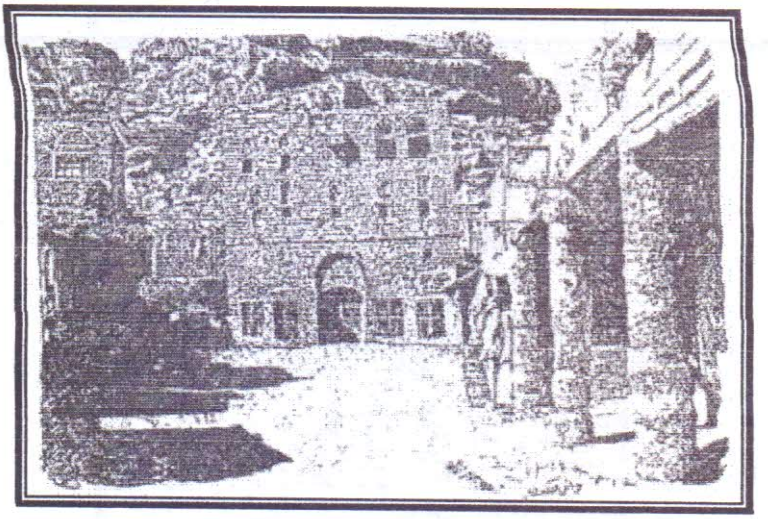

شكل رقم (١٣)
السمسرة (دار الجمرك) بمدينة شبام كوكبان

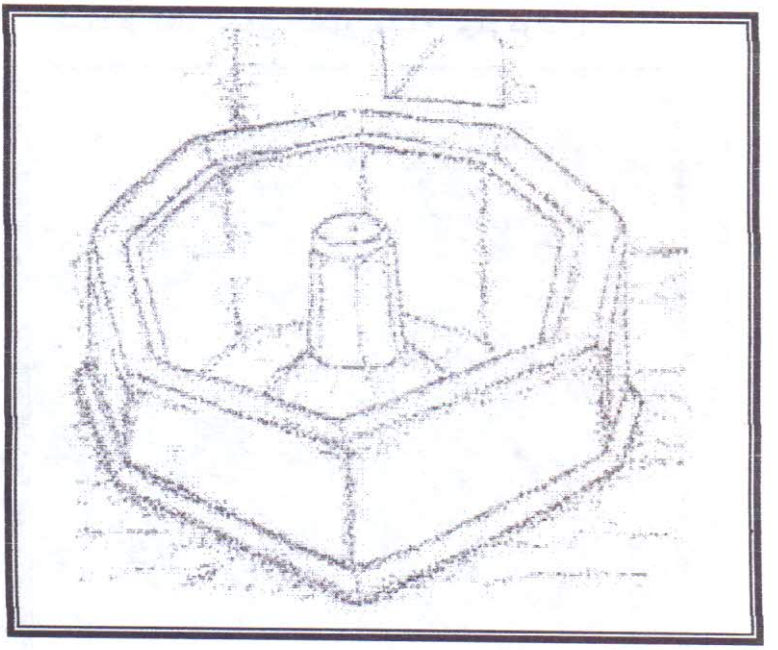

شكل رقم (١٤)
الفسقية بداخل الحمام القديم بشبام كوكبان

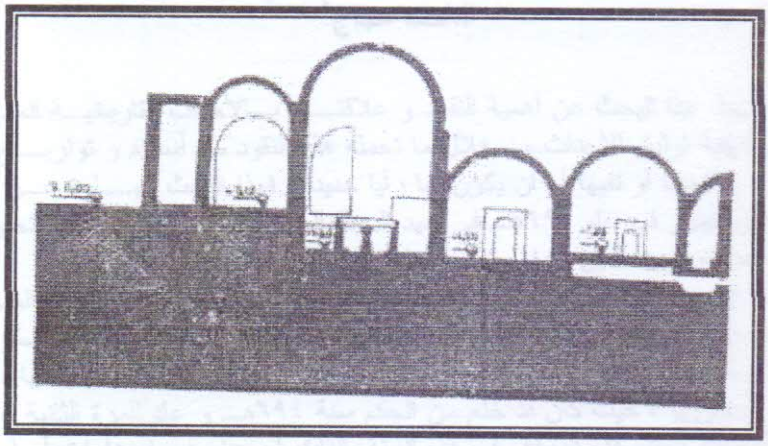

شكل رقم (١٥)
الحمام القديم بمدينة شبام كوكبان (قطاع رأسي)

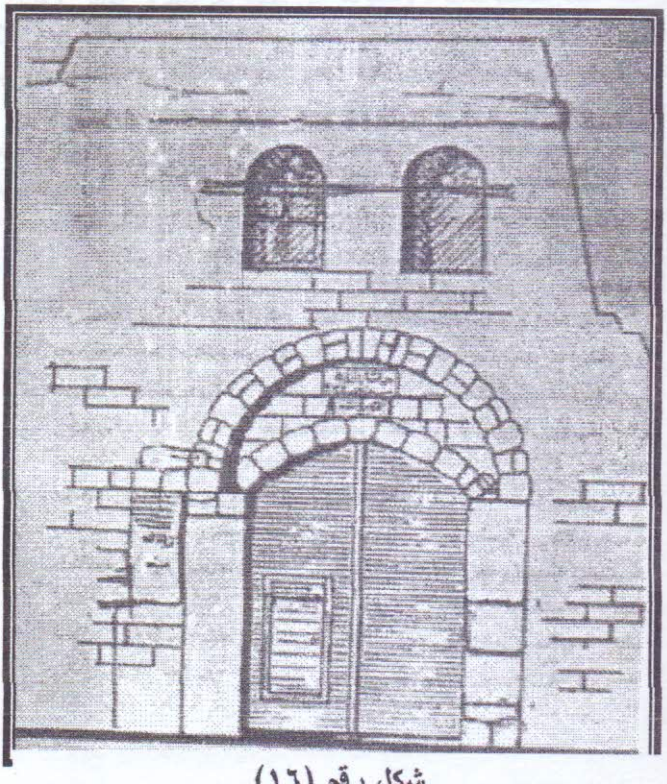

شكل رقم (١٦)
المدخل الرئيسي لمدينة شبام كوكبان